المثل التاسع

صفوان عليه تراب

المثل التاسع:
صفوان عليه تراب

يقول الله تعالى:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤} [البقرة: ٢٦٤].

أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة مَنْ راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه لا يريد إلا المدح والثناء وشكر الناس له إلي غير ذلك من المقاصد الدنيوية بقطع النظر عن الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، دون إيمان واحتساب؛ ولهذا قال:{وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ} ثم ضرب الله تعالي مثل مَنْ يمُن ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى، ثم مثّل هذا المرائي بصدقته بصفوان - أي بحجر كبير أملس - عليه تراب فيظنه الناس أرضاً خصبة طيبة، فإذا أصابه وابل أي مطر شديد أذهب عنه التراب وتركه صلداً أي ناعماً أملس، فكذلك هذا المرائي، فالمن والأذى والرياء يكشف عن سوء النية فتبطل الصدقة، كما يكشف المطر عن الحجر الأملس بإزالة ما علاه من التراب، فقد ذهب كله، وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل وتذوب عند الله تعالى وإن ظهرت في أعين أصحابها وللناس كالتراب كثرة وخصوبة ونماءً، ولهذا قال تعالى:{لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ} أي لا يقدر المرائي والمنان

والكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه، إذا كان لغير الله فعبر عن النفقة بالكسب، لأنهم قصدوا بها الكسب.{وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ} أي لا يوفقهم ولا يسددهم إلى الإيمان والاحتساب والإخلاص لله رب العالمين لأنهم اختاروا الضلالة والرياء والسمعة بأعمالهم وقدّموا المصالح الدنيوية الدنيئة على المصالح الأخروية السامية واستحبّوا العمى على الهدى، قال أحدهم:

أفسدتَ بالمن ما أسديت من حَسَن ::: ليس الكريمُ إذا أسدى بمنّان

{وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [النور: ٣٥].

***

المثل العاشر

جنة بربوة

المثل العاشر:
جنة بربوة

يقول الله تعالى:

{وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾} [البقرة: ٢٦٥].

هذا المثل ضربه الله تعالى للمنفقين أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته عن إيمانٍ واحتساب وإخلاص لا يرجون ثناءً من أحد ولا مدحاً ولا يطلبون بنفقاتهم إلا مرضاة الله تعالى ولذلك قال الله تعالى: {وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي تصديقاً ويقيناً، بمعنى أن أنفسهم تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله عز وجل، وأن نفوسهم موقنة بوعد الله وراجية لثوابه الذي لن يتخلف، بخلاف المنافق والمرائي بإنفاقه فإنهما لا يحتسبان الثواب، فمثل هؤلاء المخلصين الموقنين المتثبتين{كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ} أي بستان تغطيه الأشجار المثمرة بشتى صنوف الفواكه يزدهر على ربوة وهي المكان المرتفع، وما كان كذلك فنباته أطيب ونتاجه أوفر؛ ولذلك خصّ الربوة بالذكر:{أَصَابَهَا وَابِلٌ} أي مطر شديد{فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ} أي أعطت ثماراً ضعف ما تعطي غيرها من الجنان، فما تعطيه في عام تعطيه غيرها في عامين،{فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ} هذه الجنة طيبة التربة عالية المنزلة غزيرة الإنتاج في كل الأحوال حتى وإن لم يصبها وابل من المطر الشديد، فطلٌّ يكفيها ويرويها لتؤتي أُكلها ضعفين، والطل الندى، وقيل أضعف المطر،

وقيل الرذاذ من المطر. قال القرطبي: فشبه الله تعالي نمو نفقات هؤلاء المخلصين الذين يُربي الله صدقاتهم كتربية الفلوّ [1] والفصيل [2] بنمو نبات الجنة بالربوة الموصوفة بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه ترابه فبقي صلدا.

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالي:{فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ} قال: تلك أرض مصر إن أصابها طل زكت، وإن أصابها وابل أضعفت، إلا أن الآية أعم من ذلك وأشمل.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

(١) الفلو: المهر الصغير وهو ولد الفرس.
(٢) الفصيل: ولد الناقة.

المثل الحادي عشر

إعصار فيه نار

المثل الحادي عشر:
إعصار فيه نار

يقول الله جل وعلا:

{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ } [البقرة: ٢٦٦].

قال البخاري في تفسير هذه الآية: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ أنه قال: فيمن ترون هذه الآية نزلت:{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ }؟ قالوا: الله أعلم؛ فغضب عمر، فقال قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضُربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: " لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق عمله ". قال ابن كثير معقباً على الرواية السابقة: وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل مَن أحسن العمل أولاً، ثم انعكس سيره فبدّل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من العمل الصالح؛ فاحتاج إلى شيء من ثمرات عمله الأول وهو في أضيق الأحوال وأمسّ الحاجة إلى شيء من حسناته الأولى، فلم يحصل منه على شيء{لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟}

[البقرة: ٢٦٤]، وخانه أحوج ما كان إليه كرجل{وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ} أي أطفال صغار عند ضعفه وهرمه وعجزه{فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ} وهو ريح شديدة عاصفة{فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ} أي أحرق ثمار بستانه وأباد أشجاره ودمّر جنته وما فيها من خير كثير وكسب طيب وفير فلم يَعُد لديه قوة ليغرس مثله، ولم يكن عند ذريته خير يعودون به عليه؛ وذلك لصغرهم وضعفهم.

قال ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم: " كذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدّ إلي الله عزّ وجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا - الرجل الهرم العاجز - قوة فيغرس مثل بستانه كما لا يغنى عنه ولده؛ فحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حُرم هذا - الرجل - جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته "، ولهذا قال الله تعالي:{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي تعتبرون وتفهمون الأمثال ومعانيها وتنزلونها علي المراد منها، كما قال تعالي:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الثاني عشر

يتخبطه الشيطان من المس

المثل الثاني عشر:
يتخبطه الشيطان من المس

يقول الله تعالى:

{ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ} [البقرة:٢٧٥].

يضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لأكلة الربا - وساء مثلهم -، فهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ومس الشيطان له، فهو يتخبط في قيامه، وكلما قام صُرع ووقع لأن بطونهم أثقلتهم بما امتلأت سُحتاً ورباً.

قال القرطبي: وقالوا كلهم: يبعث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جميع أهل المحشر، ويقوي هذا التأويل قراءة ابن مسعود للآية:{لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ} في الآية تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلي تجارة الدنيا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا ثم العذاب من وراء ذلك، وقوله:{يَأْكُلُونَ} أي يكسبون الربا ويستحلونه، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دال على الجشع وهو أشد الحرص، فأقيم الأكل مقام الكسب كله، فاللباس والسكن والادخار والإنفاق علي العيال داخل في قوله:{يَأْكُلُونَ} ولأن الربا شائع في المطعومات، روى ابن أبي حاتم وأحمد من حديث الإسراء قال: قال رسول الله ﷺ :«أُتيت ليلة

أُسري بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

وروى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: قال رسول الله ﷺ :«فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم - وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه - أي يفتح له فمه - يلقمه حجرا» وذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ}.

قال البيضاوي في أنوار التنزيل: أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله، وكان الأصل أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع، ولكن عكس للمبالغة كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا عليه البيع.

{وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ} إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

❊ ❊ ❊

المثل الثالث عشر

مثلُ عيسى

المثل الثالث عشر:
مثل عيسى

يقول الله تعالى:

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾} [آل عمران: ٥٩ - ٦٠].

قال أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري في أسباب النزول:

قوله تعالي:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ} الآية.

إن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : مالك تشتم صاحبنا، قال: وما أقول؟

قالوا: تقول: إنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلي العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال القرطبي: قوله تعالي:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ} دليل علي صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسي خُلق من غير أب كآدم لا علي أنه خلق من تراب فإن آدم خُلق من تراب، ولم يُخلق عيسى من تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا علي النبي - ﷺ قوله:«إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبداً خُلق من غير أب، فقال لهم النبي ﷺ :«آدم من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسي ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم».

فذلك قوله تعالى:{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٣].

ولما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: " كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب " فقالوا: من أبو عيسي؟ فأنزل الله تعالى:{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ}.

قال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت: كيف شُبه به وقد وُجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلتُ: هو مثيله في إحدى الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأنه شُبّه به في أنه وُجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب؛ فشُبّه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شُبهته، وعن بعض العلماء انه أُسر بالروم، فقال لهم: لمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: آدم أولي لأنه لا أبوين له.

قال ابن كثير في تفسيره:

فالذي خلق آدم من غير أب - ولا أم - قادر علي أن يخلق عيسي بطريق الأولى.

و الأحرى - أي من أم بغير أب - ثم قال: ولكن الربَّ جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البريّة من ذكر وأنثى، ولهذا قال في سورة مريم:{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ} [مريم: ٢١]، وقال ههنا:{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا

تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، فلما رأوا في خلق عيسى - صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم - عجباً وخرقاً للعادة عبدوه من دون الله واتخذوه ابنا للإله وجعلوه ثالث ثلاثة، ومثله في ذلك كمثل آدم عليه السلام، فإن في خلقه من تراب عجباً أشد من خلق عيسى وخرقاً أكبر للعادة من خلق عيسى، ورغم ذلك لم يقل عاقل متدبر في خلق الله وقدرته: إن آدم ابن الله أو هو الله أو ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فأولى لهم مع تعجبهم من خلقه دون أب واستغرابهم ذلك أن تخرّ جباههم وتخضع أعناقهم لله رب العالمين اعترافا بطلاقة قدرته وعظيم صنعته وحكمته وتصديقاً بوحدانيته وتنزيهاً له سبحانه وتعالى عن أن يكون له صاحبة أو ولد، هذا من ناحية خلقه عليه السلام، أما من ناحية فعله، فنطقه في المهد وإحياؤه الموتي وإبراؤه الأكمه والأبرص وصنعه للطير ونفخ الروح فيها، فكل ذلك كان بقدرة الله وتأييده وأمره لأنها معجزات أجراها الله تعالى على يديه ليؤمن الناس برسالته، فعبدوا من أُجريت على يديه المعجزات وتركوا عبادة الرب المجيد القدير الذي خلق المعجزات وادّعوا له ولداً. سبحانه!!

{وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾} [الزخرف: ٥٧ - ٥٩].

{ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٥].

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

***

المثل الرابع عشر

ريح فيها صِر

المثل الرابع عشر:
ريح فيها صر

يقول الله تعالى:

{مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾} [آل عمران: ١١٧].

قال ابن عباس: والصر: البرد الشديد، وقال عطاء: برد وجليد، وقيل أصل الصر من الصرير وهو صوت الريح الشديدة.

وقال الزجاج: هو صوت لهب النار التي فيها تلك الريح، وقال ابن كثير في تفسيره:{فِيهَا صِرٌّ} أي نار، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يُحرق الشيء بالنار،{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} أي فأحرقته بتلك الصاعقة إذا نزلت فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب أصحابه وظلمهم، وكذلك هؤلاء فقد بنوها علي غير أصل - من الإيمان والتوحيد - وعلي غير أساس - من الإخلاص والاحتساب -{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

وقال القرطبي: ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته

ومنفعته{وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ} بذلك - أي بإحباط أعمالهم -{وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى.

وقال الزمخشري في الكشاف:

شبّه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحُسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي أصابه البرد الشديد فذهب حطاماً، وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلي الله مع كفرهم، وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، ثم قال: هو من التشبيه المركب، فالمعنى: مَثَل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح لحرث قوم ظلموا أنفسهم، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح لحرث قوم ظلموا أنفسهم.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الخامس عشر

مثله كمثل الكلب

المثل الخامس عشر:
مثله كمثل الكلب

يقول الله تعالى:

{ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ } [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

أُختلف في هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فقيل هو بلعم أو بلعام بن باعوراء قاله ابن مسعود ﷺ وقيل هو صيفي بن الراهب، قاله قتادة عن ابن عباس ﷺ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد ابن أسلم: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في زمانه وتمني أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ :«آمن لسانه وكفر قلبه» فإن له أشعاراً ربانية وحِكماً، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام، وقال مالك بن دينار: هو من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلي ملك مدين يدعوه إلي الله فأقطعه - أي من المنح والهدايا - وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام.

هذا، والمشهور الراجح عند المفسرين أنه بلعام بن باعوراء،

وكان من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام وكان مجاب الدعوة وكان يعلم اسم الله الأعظم، وقصته ساقها ابن كثير في تفسيره عن محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم عن أبي النضر: أنه حدّث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلُها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادعُ الله عليهم، قال: ويلكم، نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يتضرعون إليه حتى فتنوه، فركب حمارةً له وتوجه إلي الجبل الذي عليه عسكر بني إسرائيل فبركت به الحمارة فضربها حتى قامت فركبها فلم تسِر به كثيراً حتى بركت به فضربها فلم يزل يضربها ويرغمها علي السير حتى نطقت وكلمته حجه عليه، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟! تذهب إلي نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم ينزع عنها، فضربها، فسارت كارهة مرغمة حتى أشرفت به علي رأس الجبل فجعل يدعو علي موسى ومن معه، فلا يدعو عليهم بشر حتى صرف الله لسانه إلي قومه، ولا يدعو لقومه بخيرإلا صرف لسانه إلي بني إسرائيل، فقال له قومه أتدري يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال: فهذا ما أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، واندلع لسانه فوقع علي صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأفكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلي العسكر يبعنها فيه، ومُرُوهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم، ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزنا وتمادوا فيه

حتى أرسل الله عز وجل عليهم الطاعون فأهلك منهم سبعين ألفا، والمقلّ يذكر عشرين ألفاً في ساعة من النهار إلي أن قام مَنْ عصمه الله من هذه الفتنة وقتل من وقع فيها بحربته ونظر إلي السماء وهو يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفع الطاعون.

{فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}
لما اندلع لسان بلعام علي صدره شبّهه الله جل وعلا بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه: إن وُجر يلهث وإن تُرك يلهث، كذلك هذا الذي انسلخ من آيات الله بعد أن كساه الله بها وزينه بها إن تدعُه إلي الإيمان وتعظه بالإنابة إلي الرحمن لا يستجب ولا ينتفع بالموعظة، وإن تتركه لا ينتفع أيضاً بعدمها ولو شاء الله لعصمه من الفتنه والمعصية وثبّته علي الإيمان فرفعه إلي الجنة{وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ} أي إلي لذاتها وشهواتها وركن إليها،{وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ} أي ما زين له الشيطان وتولي الكفار وحوّل هواه إليهم فضرب الله له مثلا بالكلب فهو يلهث في كل حال في التعب يلهث وفي الراحة يلهث وفي المرض يلهث وفي الصحة يلهث وفي العطش يلهث وفي الري يلهث كذلك الذي انسلخ من آيات الله، إن وعظته ضل وإن تركته ضل، كقوله تعالي:{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾} [الأعراف: ١٩٣].

{فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فاقصص يا محمد قصص السابقين ومنهم بلعام لعل بني إسرائيل العالمين بحاله وما جرى له من فتنة وردّه بسبب انسلاخه من آيات الله ونعمه التي أسبغها عليه واستعمال تلك النعم فيما يغضب الله معاداةً لأوليائه وموالاةً لأعدائه من بعد ما تبين له الهدى، لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله، وللأسف كان أكثرهم بعد ذلك فاسقين وأصبحوا مثل بلعام فكتموا العلم الذي آتاهم

الله وانسلخوا من آياته وتنكروا لسيدنا محمد ﷺ بعد أن عرّفهم الله بصفاته في كتابهم فعادوه وآذوه وحاربوه، فأولى لهم أن يكونوا أحق الناس وأسبق الناس إلي اتباعه وتصديقه ومناصرته ومؤازرته.

وأيًا ما كان المقصود من هذه القصة، بلعام أو غيره، فإن فيها عبرةً لمن يعتبر وذكرى لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد، فقد { سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ } أي ساء مثلهم فهم كالكلابِ الضالة التي لا همّ لها إلا تحصيل الطعام والشراب والشهوة، فمن خرج عن العلم والهدى بعد أن علّمه الله وهداه وأقبل علي شهوات نفسه وأخلد إلي الأرض واتبع هواه صار كالكلب، وساء مثله.

ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:«ليس منا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

وأخرج الحافظ أبو يعلى بإسناد جيد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتاده إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره» نعوذ بالله تعالي من الخذلان وسوء العاقبة ونسأله سبحانه السلامة وحسن الخاتمة وأن يديم علينا لباس التقوى والإيمان وأن يتوفانا علي طاعته وهو راض عنا مسلمين غير مبدلين وأن يلحقنا بالصالحين. آمين.

❊ ❊ ❊

المثل السادس عشر

الحياة الدنيا

المثل السادس عشر:
الحياة الدنيا

يقول الله تعالى:

{إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾} [يونس: ٢٤].

هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها وسرعة زوالها وانقضائها وذبول نضرتها وتحوّل جمالها ونعيمها عن أهلها، فمثلها في ذلك كله كمثل ماءٍ أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض، أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً مما يأكل الناس من الزروع والثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من الحشائش{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا } أي زينتها الفانية وبهرجها الخدّاع{وَٱزَّيَّنَتْ } أي تجملت بما خرج في رباها من زهور ناضرة وثمار يانعة مختلفة الأشكال والألوان وحدائق ذات بهجة تسر الناظرين{وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ} أي على حصادها والانتفاع بما زرعوه وغرسوه، فبينما هم كذلك إذ{أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا } أي جاءهم أمر الله بتدميرها وإهلاكها وإتلافها وتعذيب أهلها بما اقترفت أيديهم{فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ } أي محصودةً ذابلة يابسةً بعد الخضرة والنضرة والجمال كأنها لم تكن عامرةً ناضرةً من قبل، وهكذا الدول والممالك بعد زوالها كأنها

لم تكن، قال تعالى مخبراً عن الهالكين الغابرين:{فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ} [هود: ٦٧ - ٦٨].

وقد يعتقد البعض أن كلمة{أَمْرُنَا} في الآية تعني يوم القيامة لتدمير الأرض كلها وتحويل بهجتها وجمالها ونضرتها خراباً يباباً، وهذا خطأ واضح لأن يوم القيامة لا يقع تحت الاحتمال بقوله تعالى:{لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} وذلك لأن يوم القيامة محسوم ميقاته في علم الله تعالى نهاراً لا ليلاً وفي يوم جمعة تحديداً، ثم قال الله جلّ وعلا:{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ويتدبرون ويتذكرون وينتفعون بما يضرب الله من أمثال.

ولذلك قال سبحانه:

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

وهذا المثل للحياة الدنيا سيُضرب أكثر من مرة بألفاظ شبيهة لهذه الآية مع اختلاف يسير في سُور أُخر سوف أتناولها في حينها وترتيبها إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

المثل السابع عشر

الأعمى والأصم

المثل السابع عشر:
الأعمى والأصم

يقول الله تعالى:

{ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ }

[هود: ١٩ - ٢٤].

قال الإمام ابن كثيرفي تفسيره: (لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات والقطوف الدانيات والحسان الخيرات والفواكه المتنوعات والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال:{مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ } أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصمّ، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصمّ عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به{أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ } [يونس: ٤٢].

{أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ} [يونس: ٤٣]،{وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وذاك{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وأولئك كما قال تعالى:{لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾} [الحشر: ٢٠]، وكقوله:{وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ} [فاطر: ١٩ - ٢٢].

قال البيضاوي في أنوار التنزيل:{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} أي تمثيلاً أو صفةً أو حالاً{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} بضرب الأمثال والتأمل فيها، وقال البغوي في معالم التنزيل: قال الفرّاء: لم يقل: هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهم واحد لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أي تتعظون.

وقال الزمخشري في الكشاف: شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من (اللف والطباق)، وهو لون من البديع في علم البلاغة.

***

المثل الثامن عشر

كباسط كفيه إلى الماء

المثل الثامن عشر:
كباسط كفيه إلى الماء

يقول الله تعالى:

{لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤} [الرعد: ١٤].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره:{لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ} التوحيد، لا إله إلا الله{وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ} أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله {كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ} قال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد:{كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ} يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها ::: من الوُد مثل القابض الماء باليدِ

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لاينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله آلهة غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال جلّ وعلا:

{وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ} قال القرطبي:{وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ} يعني الأصنام والأوثان{لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ} أي لا يستجيبون لهم دعاءً ولا يسمعون لهم نداءً{إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ} ضرب الله

عز وجل الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد، وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: **الأول**: أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه، وزعم الفرّاء أن المراد بالماء ههنا البئر لأنها معدن الماء وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء [1].

وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي ::: وبئري ذو حفرت وذو طويت

قال الإمام علي ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه، ومعنى{إِلَّا كَبَٰسِطِ} إلا كاستجابة{كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ} فالمصدر مضاف إلى

الباسط، ثم حُذف المضاف، وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء،

واللام في قوله:{لِيَبْلُغَ فَاهُ} متعلقة بالبسط، وقوله:{وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ} كناية عن الماء، أي وما الماء ببالغ فاه، ويجوز أن يكون كناية عن

(١) الرشاء: الدلو.

الفم، أي وما الفم ببالغ الماء{وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك، وقيل: إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه سبيلا، كما قال تعالى:{أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا} [الأعراف: ٣٧].

وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يستجيب دعاءهم.

قال الزمخشري في الكشاف: وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه، وقرئ:{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} بالتاء{كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ} بالتنوين{إِلَّا فِي ضَلَالٍ} إلا في ضياع لا منفعة فيه لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾} [محمد: ٣].

❊ ❊ ❊